رياض الإيمان

(٢)

تعال نبكي

لنطفئ بحاراً من نار

عبد الرحمن السنجري

دار البشائر الإسلامية

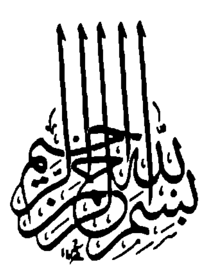
رياضُ الإيمان

(٢)



عبد الرحمن السنجري





تعال نبكي

لنطفئ بحاراً من نار

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار البشائر الإسلامية

للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان - ص. ب : ٥٩٥٥ - ١٤

البُكاءُ مِن خَشيَةِ ربِّ الأرض والسَّماء

قال تعالى:

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾

[الإسراء/١٨].

وقال جلَّ اسمه:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم/٥٨].

***

اغسلـوا أربَـعاً بِأَربَـع

١ ــ وجـوهَـكُـم بمـاءِ أعـينـكـم . .
٢ ــ وألسِنَتكم بـذِكـر خَـالِقـكم . .
٣ ــ وقـلوبَكُـم بـخشـيَـةِ رَبِّـكُـم . .
٤ ــ وذُنوبَكم بالتـوبـة إلى مـولاكم .



فـابـكـوا كـثـيـراً. . .

كيف احتيالي إذا جاء الحسابُ غداً

وقـد حُشـرتُ بـأثقـالي وأوزاري

وقــد نـظرتُ إلى صُحُفي مســودة

من شؤم ذنب قديم العهد أو طاري

وقـد تجلّى لهتـكِ السـتـر خـالقنــا

يـوم المعـاد ويـوم الـذُّلِّ والعَـارِ

يفـوزُ كـل مـطيـعٍ للعـزيـز غــداً

بــدارِ عــدن وأشـجــارٍ وأنـهــارِ

لـهم نـعـيـم خـلودٍ لا نـفــاد لــه

يخلدون بــدار الـواحــد البــاري

ومن عصى في قـرار النـار مسكنُه

لا يستـريح من التعـذيب في النـارِ

فـابكوا كثيـراً فقد حقَّ البكـاءُ لكم

خـوفَ العذاب بـدمع واكف جـارِ

المقدمة

الحمد لله حمداً كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سُلطانه، والصلاة والسلام على أخوف الناس وأعرفهم بربِّه، الهادي إلى طريق الله المستقيم، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فقد قال الإمام أبو الفَرَج ابن الجَوْزِي رحمه الله:

الخوف: هو النار المحرِقة للشهوات.

فإذاً فضيلته بقدر ما يُحرق من الشهوة، وبقدر ما يكفّ عن المعصيةِ ويحثُّ على الطاعة. وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفّة، والورع، والتقوى، والمجاهدة، والأعمال الفاضلة التي يُتقرب بها إلى الله تعالى فهو كما قال تعالى:

﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

[الأعراف/ ١٥٤].

وقوله: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾

[البينة/ ٨].

﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران/ ١٧٥].

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى/ ١٠].

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾

[الإسراء/ ١٠٩].

والخوف ثمرة العلم، وكلما ازداد الإنسان علماً زاد خوفاً، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ ﴾ [فاطر/ ٢٨].

وقال ﷺ: «إن لله ملائكة تَرعَدُ فرائِصُهم من مخافته».

قال رسول الله ﷺ: «هل تسمعون ما أسمع

أَطَّتِ[1] السمـاءُ وحَقٌّ لهـا أن تَئِط، والـذي نفسي بيـده ما فيها موضع أربَعِ أصابـع إلاَّ وَمَلَكٌ ساجـدٌ لله تعالى، او قائمٌ، أو راكِعٌ، ولـو تعلمون مـا أعلم لضحكتم قليلاً ولـبكـيتـم كثيـراً ولخـرجـتم ـ أو لَـصَعِـدتـم ـ إلى الصُّعُـدات[2] تجأرُون إلى الله تعـالى خـوفـاً من عـظيم سطوته وشدة انتقامه».

لهـذا كـان لصـدر رسـول الله ﷺ أزيـز كـأزيـز المِرْجل[3] من البكاء.

وتقـول عـائشـة رضـي الله عنهـا: مـا رأيتُ رسـول الله ﷺ قَطُّ مستجمعـاً ضـاحكـاً، حـتى أرى

---

(١) صوتت من ثقلها، والبطن صوَّت من الجوع، والظهـر صوَّت من ثقل الحمل، والإبل أنَّت من تعب أو ثقل حمـل أو حنين، القاموس المحيط، ١/ ٢٠.

(٢) أي الطُرُق.

(٣) أي قِدْر النحاس عندما يوضع على النار.

لَهَواته[1]، إنما كان يبتسم، وكـان إذا رأى غيماً وريحـاً عُرِفَ ذلك في وجهه.

فقلتُ يا رسول الله: النـاس إذا رأوا الغيم فرحـوا رَجَـاء أن يكـون فيـه المـطر، وأراكَ إذا رأيتَـه عُـرِفَتِ الكراهةُ في وجهكَ!

فقـال: «يـا عـائشـة: مـا يُـؤَمِّنُني أن يكـون فيـه عذاب؟ قد عُـذِّب قومٌ بـالريـح، وقد رأى قـومٌ العذاب فقالوا:

﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف/ ٢٤].

وفي حـديث أبـي ذرٍّ الـطويـل عن النبـي ﷺ، قلتُ: يـا رسول الله مـا كـانت صُحُف مـوسى؟، قـال: «كانت عِبَراً كلها، عَجبتُ لمن أيقن بالموت وهو يفرح،

---

(١) اللُّهـوات: جمـع لهـاة، وهي اللُّحَمَـات في سقف أقصى الفم.

وعَجبتُ لمن أيقن بالنار وهو يضحك...» الحديث، رواه ابن حبّان في صحيحه.

وروى الإمام أحمد من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه سأل جبريل عليه السلام، فقال له: «ما لي لا أرى ميكائيل عليه السلام يضحك»، فقال جبريل: ما ضحك ميكائيل منذ خُلِقَت النار.

وكان الحَسن البصري يقول: إن المؤمنين قوم ذلّت والله منهم الأسماع والأبصار والأبدان حتى حَسِبهم الجاهل مرضى، وهم واللّهِ أصحاب القلوب، ألا تراه يقول:

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾

[فاطر/ ٣٤].

واللّهِ لقد كابدوا في الدنيا حزناً شديداً وجرى عليهم ما جرى على من كان قبلهم، واللّهِ ما أحزنهم ما أحزن الناس، ولكن أبكاهم وأحزنهم الخوف من النار.

الدمعة تُطفىء بحاراً من نار

قال رسول الله ﷺ: «ما اغرَورَقتْ عين بمائِها إلاّ حَرَّم الله ذلك الجسد على النار، ولا سالت على خَدِّها فيَرْهَق ذلك الوجه قَتَر[1] ولا ذِلَّة، وَلَو أنَّ باكياً بكى في أُمَّة من الأمم لَرُحِموا، وما من شيء إلاّ له مقدارٌ وميزان إلاّ الدمعة فإنه يُطفىء بِها بِحارٌ من نار»[2].



(١) القتر: جمع قَتَرة، وهي الغُبار.

(٢) المصنف، لعبد الرزاق الصنعاني، ١١/ ١٨٩.

أسباب البكاء وموجباته

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [التحريم / ٦ ــ ٨].

لِمَ لا يبكي الإنسانُ على نفسِه المرهونـةِ بالنـارِ،

والموتُ راكبٌ على عُنُقِهِ، والقبرُ منزلُه، والقيامةُ مَوقِفُه، والخُصَماء أقوياء، والقاضي الجبار، والمنادِي جبريل، والسجنُ جهنم، والسجَّان الزَّبانيةُ، وهو لا يصبر على حرِّ الشمس، فكيف يصبر على لَسَعات الحيَّات والعقارب؟.

وفي مسند أحمد من حديث أبي أُمَامَة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تدنو الشمس يوم القيامة على قدرِ ميل، ويزاد في حرِّها كذا وكذا تغلي منها الرؤوس كما تغلي القدور، يعرقون فيها على قَدْر خطاياهم، فمنهم من يبلغ إلى كعبيه، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه، ومنهم من يبلغ إلى وَسَطه، ومنهم من يلجُمه العرق».

إذا كان هذا حرّ الشمس فكيف سيكون حرّ النار، وإذا كانت نار الدنيا كما قالَ رسولنا الأكرم ﷺ: «جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»، فاللَّهم أجرنا من النَّار، وأدخلنا الجنة دارك دار القرار برحمتك يا عزيز يا غفَّار.

* * *

* حدَّثوا أن شيخاً راى صبياً يتوضأ على ساحل نهر وهو يبكي، فقال الشيخ: يا صبي ما يبكيك؟

فقال الصبي: يا عم قرأتُ القرآن حتى جاءت هذه الآية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم/٦].

فخفتُ أن يلقيني الله في النار.

قال الشيخ: يا صبي أنت غير مؤاخذ لأنك لم تبلغ الحُلُم فلا تخف، إنك لا تستحق النار.

فقال الصبي: يا شيخ أنت عاقل الا ترى أنَّ الناس إذا أوقدوا ناراً لحاجتهم وضعوا صغار الحطب ثم وضعوا الكبار!..

فبكى الشيخ وقال: إن الصبي أخوف منّا من النار.



صور من أهوال يوم القيامة

بكت عـائشة رضي الله عنهـا ذات يوم فقـال لهـا رسول الله ﷺ: «ما يبكيكِ يا عائشة؟».

فقـالت: ذَكَـرتُ النــارَ فبكيتُ، فهـل تـذكـرون أهليكم يوم القيامة يا رسول الله؟

فقال لها رسول الله ﷺ: «أمَّا في ثلاثةِ مواطن فلا يذكر أَحَدٌ أحداً».

الموطن الأول:

«عند تطايـر الكتب، فلا يَعلَمُ أيُؤتَىٰ كِتَـابَهُ بيمّينـه أم بشماله».

لأنَّ كلّ إنسان ينتظر صحيفة أعمـاله ونتيجـة دنياه فـلا يـدري مـا هي النتيجـة أهي فـوز أم خسـارة، أهي بطاقة إلى الجنة أم إلى النار، كل إنسان مشغـول بنفسه وما اقترفه من ذنوب ولسان حاله يردد:

انا مشغولٌ بذنبي عن ذنوب العَالمينا
وخطايا أثقلتني جَعَلَتْ قلبي حَزينا
ولقد كنتُ جليلاً في عيون الناظرينا
صِرتُ في ظُلمة قبري ثاويا فيها رهينا

تتطاير الكتب والكل في خوف شديد.

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف/ ٨٠].

الموطن الثاني:

«عند وضع الميزان حتى يَعلم أيخفّ أم يثقل؟».

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء/٤٧].

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ [القارعة/٦ ــ ١١].

الموطن الثالث:

«عند الصراط حتى يَعْلَمَ أيجوز أم يسقط».

والصراط طريق يوضع على ظهـر جهنم، (جسر) يمر عليه الأوّلون والآخرون بعد انصرافهم من الموقف، يجوز عليه المؤمنون الموفّقـون إلى دار السلام، ويسقط مِن عليه الفجرة العصاة.



فضل البكاء من خشية الله

* كان رسول الله ﷺ يقول: «شيَّبتني هودُ وأخواتها الحاقَّة، والواقعة، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشمس كوِّرت والغاشية».

قال العلماء: لعلَّ ذلك لما فيهن من التخويف الفظيع والوعيد الشديد، وصور الآخرة، وعجائبها، وفظائِعها، وأحوال الهالِكين، والمُعذَّبين، مع ما اشتملت عليه هود من الأمر للنبي ﷺ بالاستقامة كما أُمر هو ومن معه.

وإن أعظم زاجر عن الذنوب هو خوف الله تعالى وخشية انتقامه وسطوته، وحذر عقابه وغضبه وبطشه.

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور/٦٣].

وقال رسول الله ﷺ: «عينان لا تَمسُّهُما النار، عينٌ بكت في جوف الليل من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله».

وقد ذكر صلوات ربي وسلامه عليه من بين السبعة الذين يظلهم الله في ظلِّه يوم القيامة: «... ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

وقال رسول الله ﷺ: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله».

وقال رسول الله ﷺ: «إذا اقشعرَّ جسد العبد من مخافة الله تعالى تحاتت[1] عنه خطاياه كما يتحاتُّ عن الشجرة اليابسة أوراقها».

---

(١) أي تساقطت.

ثم يقـــول ربّ العـزَّة جــلَّ اسمـه في الحــديث القـدسي: «وعزتي لا أجمـع على عبـدي خـوفين، ولا أجمع له أمنين، إن أمِنَني في الدنيا أخفته يوم القيـامة، وإن خافني في الدنيا أمَّنتُه يوم القيامة».

تـربَّـى أصحاب رسـول الله ﷺ على هذه التـربية واقتدوا بسيدهـم فكانوا مصابيح خيرٍ وهدى، رضوان الله عليهم أجمعين.

***

صور من بكاء الصحابة
رضـوان الله عـلـيـهـم

* كان أبو بكر رجلاً بكَّاءً لا يملِك عينيه إذا قـرأ القرآن.

* * *

* وكان في وجه عمر بن الخطاب خطَّانِ أسودان من البكاء، وكان يسمع آية فيمرَض فيُعادُ أياماً.

وأخـذ يومـاً تِبْنَـةً[1] من الأرض، فقـال: يـا ليتني كنت هذه التبنة، يـا ليتني لم أَكُ شيئاً مـذكوراً، يـا ليتَ أمي لم تلدني.

---

(١) التبنة: جمعها التِّبْن، وهـو ما تُعلَف بـه الماشيـة من شعير ونحوه.

ولما طُعِنَ رضي الله عنه وقَرُبَت وفاتُه قال لابنه:
ويلكَ ضع خدِّي على الأرض لا أمَّ لك، وويليَ ثم ويلي إنْ لم يرحمني.

* * *

* ورؤيَ عليٌّ في بعض مواقفه وقد أرخى الليلُ ستورَهُ، وغارت نجومُه، وقد تمثَّل في محرابه قابضاً على لحيته، يتململ تململَ السليمِ ـ اللديغ ـ ويبكي بُكاءَ الحزينِ، وكأني أسمعه يقول: يا ربَّنَا، يا ربَّنَا... يتضرَّع إليه.

ثم يقول: يا دنيا، يا دنيا، إليَّ تعرضتِ، أمْ بي تشوَّقتِ، هيهاتَ هيهاتَ غُرِّي غيري، وقد بَتَتُّكِ ثلاثاً[1] لا رجعة لي فيك، فَعُمُرُكِ قصير وعيشُكِ حقير، وخطركِ كبير، آه من قلَّة الزاد وبُعد السَّفر ووحشة الطريق.

---

(١) أي طلَّقتك ثلاثاً.

* ووصف الإمام علي رضي الله عنه أصحابَ رسول الله فقال: واللّهِ لقد رأيتُ أصحابَ رسول الله ﷺ فما أرى اليومَ شيئاً يشبِهُهُم، لقد كانوا يُصبِحونَ شُعثاً غُبْراً، بين أعينهم أمثالُ رُكَبِ المِعزىٰ، فقد باتوا للّهِ سُجَّداً وقياماً، يتلون كتاب الله، يُراوِحونَ بين جباهِهم وأقدامهم، فإذا أصبحوا ذكروا اللّهَ عزَّ وَجل، مادوا كما يميد الشجَرُ في يوم الريحِ، وَهَمَلَت أعينُهم حتى تُبِلَّ ثيابَهم.

ثم يقول: والله لكأن القومَ[1] باتوا غافلين.

* * *

* قال يحيى بن معاذ الرازي في مناجاته:

إلٓهي لا يطيبُ الليلُ إلاَّ بمناجاتك.

ولا يطيبُ النهارُ إلاَّ بطاعتك.

ولا تطيبُ الآخرةُ إلاَّ بعفوك.

ولا تطيبُ الجنَّةُ إلاَّ برؤيتك.

---

(١) أي أهل زمانه فما بال أهل زماننا. . . ؟!

صور من بكاء التابعين ومَن بعدهم

* كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله إذا ذكر الموت انتفض انتفاضة الطير، ويبكي حتى تجري دموعُهُ على لحيته، وبكى ليلةً فبكى أهلُ الدارِ، فلما تجلَّت عنهم العَبْرة قالت فاطمة (زوجته): بأبي أنت يا أمير المؤمنين مِمَّ بَكِيت؟!.

قال: ذكرتُ مُنصرفَ القومِ مِن بينِ يدي الله تعالى، فريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السعير.

ثم صَرَخَ وغُشِيَ عليه.

* * *

* لقد كان عمر بن عبد العزيز يجمع الفقهاءَ كُلَّ ليلة، ويتذاكرون الموتَ والقيامةَ والآخِرةَ، فلا يزالون يبكون حتى كأنَّ بين أيديهم جنازة.

وكان ساكتاً وأصحابُه يتحدَّثون فقالوا له: مالك لا تتكلم يا أمير المؤمنين؟!.

قال لهم: كنتُ مفكِّراً في أهلِ الجنةِ كيف يتزاورون فيها، وفي أهلِ النار كيف يصطرخون فيها.

ثم بكى رحمه الله.

* * *

* عن أبي معشر قال: رايتُ أبا حازم يبكي ويمسحُ بِدموعه وجهَهُ، فقلتُ: يا أبا حازم لِمَ تفعلُ هذا؟!. قال: بلغني أن النارَ لا تصيبُ موضعاً أصابَته الدموعُ من خشيةِ الله تعالى.

* * *

* قال أحد الصالحين: من أذنب ذنباً وهو يضحك فإن الله تعالى يدخله النارَ وهو يبكي، ومن أطاع اللّهَ وهو يبكي فإن الله تعالى يدخله الجنةَ وهو يضحك.

* * *

* قيل لأحد الصالحين كيف أصبحت؟

فبكىٰ وقال: أصبحتُ والله في غفلةٍ عظيمةٍ عن الموت، مع ذنوبٍ كثيرةٍ قد أحاطت بي، وأجلٍ يُسرعُ كل يوم في عُمُرِي، وموئلٍ لستُ أدري علامَ أهجمُ...

ثم بكى رحمه الله.

* * *

* عن المُزَني قال: دخلتُ على الشافعي في علته التي مات فيها فقلتُ: كيف أصبحت؟!

فقال: أصبحتُ من الدنيا راحِلًا، ولإخواني مفارقاً، ولكأسِ المنيَّةِ شارباً، ولسوءِ أعمالي ملاقياً، وعلى اللّهِ وارداً، فلا أدري روحي تصير إلى جنَّةٍ فأهنئها، أو إلى نارٍ فأعزِّيَها؟..

ثم بكى وأنشأ يقول:

فلما قسىٰ قلبي وضاقت مذاهبي

جعلتُ الرجا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا

تعـاظَمني ذَنبـي فَلَمَّـا قَـرَنْتُـهُ
بِعَفْـوِكَ رَبِّـي كـانَ عَفْـوُكَ أَعْـظَمَـا
وَمَا زِلْتَ ذا عَفْوٍ عن الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ
تـجُـودُ وَتَعـفُـو مِنَّـةً وَتَـكَـرُّمـا

* * *

* قـال أبـو حـازم: عجبـاً لقـومٍ يعملون لـدارٍ يـرحلونَ عنها كُلَّ يومٍ مرحلة، ويَدَعـون أن يعملوا لِدارٍ يرحلونَ إليها كُلَّ يومٍ مرحلةً! . .

* * *

* قال عبد الرحمن بن يزيد ليزيـد بن مَرْثَـد وقد رآه يُكثر من البكاء: مالي أرى عينيكَ لا تجِف؟

قال: وما مسألتُكَ عنه؟!

فقال: عسى اللَّهُ أن ينفعني به.

قال: يا أخي إنَّ اللَّهَ قد تَوعَّدَني إنْ أنَا عَصيتُه ان

يسجُنَني في النار، واللّهِ لَو لَم يتـوعدَني أن يسجنني إلاّ في حمّام، لكُنتُ حَرِيّاً أن لا تجِفَّ لي عين.

قالَ: فقلتُ لَهُ: فهكذا أنتَ في خلواتِك؟..

قال: وما مسألتُكَ عنه؟

قُلتُ: عَسَىٰ اللّهُ أن ينفعني بذلك.

قــال: واللّهِ إنَّ ذلـك ـ أي السجن في النــار ـ ليعرِضُ لي حين أسكنُ إلى أهلي ـ أي لإرادة وطئها ـ فيحول ذلك بيني وبين ما أريد، وإنَّهُ ليوضَعُ الطعام بين يـدي فيعـرِضُ لي فيحــولُ بيني وبين أكلِهِ، حتى تبكي امرأتي ويبكي صِبياننا لا يدرون ما أبكانا، ولربما أضجَرَ ذلـك امرأتي فتقـول: يا ويحَهـا ما خُصَّتْ بـه من طولِ الحُزنِ مَعَكَ في الحياة الدنيا ما تَقَرُّ لي مَعَكَ عين.

* * *

* عن مِهْـران بن عمرو الأسـدي قـال: سمعتُ الفُضَيل بن عِيَاض عشيةَ عرفة بالمـوقف، وقد حـال بينه

وبين الدعاء البكاءُ، يقول: وَاسَوأتاه، وَافَضِيحَتَاه، وَإنْ عَفَوْت! . . .

* * *

* عن أحمد بن سهل قال: قَدِمَ علينا سعدُ بنُ زُنْبُور فأتيناه فحدثنا، قال: كنَّا على باب الفُضَيْل بن عِيَاض فاستأذنَّا عليه فلم يُؤذن لنا، فقيل لنا: إنَّهُ لا يخرجُ إليكم أو يسمعُ القرآنَ.

قال: وكان معنا رجلٌ مؤذِّن وكان صَيِّتاً ـ شديد الصوت ـ فقلنا له: اقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، [التكاثر/١].

ورفع بها صوته، فأشرف علينا الفُضَيلُ بنُ عِيَاض وقد بكى حتى بَلَّ لحيته بالدموعِ وَمَعَهُ خرقةٌ يُنَشِّفُ بها الدموعَ من عينيه، وأنشأ يقول:

بَلَغْتُ الثَّمانِينَ أَوْ جُزْتُها
فَمَاذا أُؤَمِّلُ أَوْ أَنْتَظِرْ؟

انى لي ثمـانـونَ مِن مـولِـدِي
وَبَعـد الثمـانيـنَ مَـا يُنتَـظَرْ؟
عـلّتنـي الـسُّنُـون فَـأَبْلَيـنَنـي
فَـرَقَّـتْ عِـظَامِي وَكَـلَّ الـبَصَـرْ

* * *

* قيل للحسن البصري رحمه الله: يا أبـا سعيد كيف نَصْنَعُ بِمجالَسَةِ قومٍ يُحَدِّثُونا عن الرجاء حتى تكاد قُلوبُنا تطير؟

فقـال للسائِـلِ: إنَّـكَ واللّهِ إن تصحبَ قـومـاً يُخـوِّفونَـكَ حَتَّى تُدرِكَ امناً، خيـرٌ لـكَ مِن ان تَصحَبَ اقواماً يُؤَمِّنونَكَ حتى تَلحَقَ المخاوِفَ.

* * *

* وقـال صلوات ربـي وسلامـه عليه: «لـو يعلمُ المؤمِنُ مـا عند اللّهِ من العقـوبةِ مـا طَمِعَ بِجَنَّتـهِ احـدٌ، ولو يعلمُ الكافِرَ ما عند اللّهِ من الرحمـةِ ما قَنَطَ مِن جنَّتِـهِ احد».

* * *

ذِكْرُ الموت والنار يـدعـو إلى البكـاء

* قـال أبو الـدَّرداء رضي الله عنـه لإخـوانـه في الكعبة: أليسَ إذا أرادَ أحدُكم سَفَراً أن يَتَزَوَّدَ لَهُ بزاد؟

قالوا: بلى.

قال: حُجُّوا حجَّةً لِعظائِم الأمـور، وصلُّوا ركعتين في ظلمة الليلِ لوَحْشَة القبور، وصوموا يوماً شديـداً حَرُّهُ لِطولِ يومِ النُّشور.

اِغسلوا أربعـاً بـأربـع، وجـوهَكم بمـاءِ أَعْيُنِكُمْ، وألسِنَتَكُم بِـذِكـرِ خـالِقِكم، وقلوبكم بخشيـةِ رَبُّكُم، وذنوبَكُم بالتَّوبَةِ إلى مولاكـم.

* * *

* عن جعفر بن سليمان قال: بكى ثابت[1] حتى كادت عينه تذهب، فجاؤوا بِرَجُلٍ يعالجها.

فقال الرجل: أعالِجُها على أن تطيعني.

قال: وأيُّ شيءٍ؟

قال: على أن لا تبكي.

قال: فما خَيْرُهما إن لم تبكيا.

وأبى أن يتعالج[2].

* * *

* قال الفُضَيْل بن عِيَاض رحمه الله: لو أن الدنيا كُلُّها بحذافيرها جُعِلَتْ لي حَلالاً لا أحاسب بها في الآخرة لكنتُ أتقذَّرها كما يتقذَّر أحدكم الجيفة[3] إذا مرَّ بها أن تصيب ثوبه[4].

---

(١) هو ثابت بن أسلم البُنَاني، المتعبِّد الناحل، والمتهجِّد الذابل.

(٢) حلية الأولياء ٢/٣٢٣.

(٣) جثة الميت من حيوان ونحوه. (٤) حلية الأولياء ٨/٨٩.

وكانت قراءَةُ الفُضيل حزينـةً شهيةً بطيئةً متـرسِّلةً كَأَنَّهُ يخاطب إنسانـاً، وكان إذا مَـرَّ بِآيـةٍ فيها ذكـر الجنة يُرَدِّدُهَا.

وكان يُلقىٰ لَهُ حصيـر بالليـلِ في مسجدِهِ فيصلي في أولِ الليل ساعـةً حتى تَغلِبُه عينُـه فيلقي نفسه على الحصيـر فينامُ قليـلاً ثم يقوم، فَـإذا غلبه النـوم نامَ، ثم يقوم هكذا حتى يصبح.

وسمع واعظاً في المسجد الحرام يصفُ شيئـاً من صفةِ النار فصاح صيحةً حتى غُشِيَ عليه فطرح نفسه.

* * *

* قـال نافـع: خـرجت مـع ابن عمـر في بعض نواحي المدينة ومعه أصحـاباً لـه، فوضعـوا سُفْرةً، فَمَـرَّ بهم راعٍ فقال له عبد الله: هَلُمَّ يا راعي فَأَصِب من هذه السفرةِ.

فقال: إني صائِم.

فقـال له عبـد الله: في مثل هـذا اليـوم الشـديـدِ

حرِّه، وأنت في هذه الشِّعاب في آثار هـذه الغنم، وبين الجبال ترعى هذه الغنم وأنت صائم؟!..

قال الراعي: أُبادِرُ أيامي الخالية.

فعجِبَ ابن عمر وقال: هل لكَ أن تبيعنـا شاةً من غنمِكَ نجتزِرُها ونُطعِمُكَ من لحمها ونعطِيَكَ ثمنها؟

قال: إنها ليست لي، إنها لمولاي.

قـال: فمـا عَسيتَ أن يقـولَ لـك مـولاكَ إن قُلتَ أكلها الذئب؟

فمضى الراعي وهو رافِـع أصبعه إلى السمـاء وهو يقول: فَأينَ الله؟ أين الله؟

قال فلم يزل ابن عمر يقول: قـال الراعي: فَـأين الله.

فما عدا أن قَدِمَ المدينةَ فبعث إلى سيدهِ فـاشترى منه الراعي والغنم، فأعتقَ الراعي ووهب له الغنم.

ورويت هذه القصة عن سيدنا عمـر رضي الله عنه

فقال له: أعتقتكَ هذه في الدنيا وأرجو أن تعتِقَك في الآخرة.

* * *

* عن عيسىٰ بن عمر قال: كان عمرو بن عتبة بن فَرْقَد يخرج على فرسه ليلاً فيقف على القبور فيقول: يا أهل القبور قد طُوِيَتِ الصحف، وقد رُفعت الأعمال، ثم يبكي ويصفُّ بين قدميه حتى يصبح، فيرجع فيشهد صلاة الصبح[1].

* * *

* عن ابن ثوبان قال: حدثني من سمع أبا عبد رب يقول لمكحول: يا أبا عبد الله أتحب الجنةَ؟

قال: ومن لا يحب الجنةَ؟

قال: فأحبَّ الموتَ فإنك لن ترىٰ الجنةَ حتى تموت.

* * *

(١) حلية الأولياء ١٥٨/٤.

* عن مِسْعَر عن عبد الأعلى التيمي، قال: من اوتي من العلم ما لا يبكيه لَخَلِيق أن لا يكون أوتي علماً ينفعه، لأن الله تبارك وتعالى نعت العلماء فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [الإسراء/١٠٧].

* * *

* عن إبراهيم بن الأشعث قال: كنا إذا خرجنا مع الفُضَيْل في جنازةٍ لا يزال يَعِظُ وَيُذكِّر ويبكي حتى لكأنه يودعُ أصحابَه ذاهبٌ إلى الآخرةِ، حتى يَبلُغَ المقابِرَ فيجلسُ فكأنه بين الموتى جَلَسْ مِن الحزنِ والبكاءِ حتى يقومَ، وَلَكأنه رَجَعَ من الآخِرَةِ يُخبِرُ عنها.

* * *

* عن إسحاق بن إبراهيم الطبري قال: سمعت الفُضَيْل يقول: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم مكبلٌ كَبَّلَتْكَ خطيئتُك.

* * *

* كان سعيد بن السَّائِب الطائِفي لا تكاد تَجِف له دمعة إنَّما دموعَهُ جارية وهرة، إن صَلَّىٰ فهو يبكي، وإن لقيته في طريق فهو يبكي.

* * *

* قال الثَّورِي رحمه الله: جلستُ ذات يوم أُحَدِّثُ ومعنا سعيد بن السَّائب الطائفي، فجعل يبكي حتى رَحِمتُه، فقلتُ: يا سعيد ما يبكيكَ.. وأنت تسمَعُني أذكر أهلَ الخير وَفِعَالهم؟!..

فقال: يا سفيان وما يمنعني من البكاء إذا ذكرت مناقِبَ أهلَ الخيرِ وكُنتُ عنهم بِمَعزِل!

قال سفيان: حُقَّ له أن يبكي.

***

من كَبُرَت سنُّه كان خوفه أكبر

* عن بكّـار بن عبد الله عن وهب قـال: قـرأتُ في بعض الكتب أن منادياً ينادي من السماء الرابعةِ كُـلَّ صباح:

أبناء الأربعين زرعٌ قد دنا حصاده،

أبناء الخمسين ماذا قدمتم وماذا أخرتم؟..

أبناء الستين لا عُذر لكم،

ليت الخلقَ لم يُخلقـوا، وإذا خُلِقُوا عَلِمـوا لماذا خلقوا، قد أَتَتكُم الساعةُ فخذوا حِذرَكُم.

* * *

* عن الحَسَن بن علي العابد قـال: قال فُضَيْـل ابن عِيَاض لرجلٍ: كم أتت عليك؟

قال: ستون سنة.

قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك تـوشِكُ أن تبلُغَ.

فقال الرجل: يا أبا علي إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

فقال الفضيل: تعلم ما تفسيره؟

قال الرجل: فَسِّرْهُ لنا يا أبا علي؟

قال: قولُـكَ إنَّا لله، تقـول أنا لِلَّهِ عبـدٌ، وأنا إلى الله راجع، فمن عَلِمَ أنه عبد الله وأنه إليـه راجع فَليعلم بأنه موقوف، ومن علم بأنه موقوف فليعلم بأنه مسؤول، ومن علم أنه مسؤول فليُعِدَّ للسؤال جواباً.

فقال الرجل: فما الحيلةُ؟

قال: تَسترُه.

قال: ما هي؟

قـال: تُحسِنُ فيمـا بقي يُغفَـرُ لَـكَ مـا مضىٰ ومـا بَقي، فإنَّك إن أسأتَ فيما بقيَ أُخِذتَ بما مضى وبَقي.

* * *

* عن عمارة بن العلاء قال: سمعتُ عمر بن ذر يقول:

اعملوا لأنفسكم رحمكم الله في هذا الليل والنهار، والمحروم من حُرِمَ خيرهما، وإنما جُعِلا سبيلاً للمؤمنين إلى طاعة ربهم ووبالاً على الآخرين للغفلة عن أنفسهم، فأحيوا أنفسكم بذكره، فإنما تحيا القلوبُ بِذِكرِ الله تعالى.

كم مِن قائمٍ في هذا الليلِ قد اغتُبِطَ بقيامِه في حفرته، وكم من نائمٍ في هذا الليلِ قد نَدِم على طولِ نومِه عندما يرى من كرامَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ للعابِدِ غداً، فاغتنموا مَمَرَّ الساعاتِ والليالي والأيام رحمكم الله.

* * *

* عن بكرٍ العابد قال: قلتُ لسفيان بن عيينة: يا أبا محمد أَبَلَغَكَ أن الناسَ يزدحمون يوم القيامةِ؟

فقال: الأقدام يوم القيامة هكذا ووضع يده فوق الأخرى.

ثم قـال بكـر: بلغني أن النـاسَ يخـرجـون من قبورهم وهـم يقولون:

الماءَ الماءَ... العطش العطش...

ثم قال: أشدُّ الناس حَسرةً يوم القيامة ثلاثةٌ:

رَجُلٌ كان له عبدٌ فجاءَ يوم القيامَةِ أفضلَ عملاً منه، وَرَجُلٌ له مالٌ فلم يتصدق منه فورِثَهُ غَيرُهُ فتصدق منه، وَرَجُلٌ عالمٌ لم يَنتَفِع بِعلمِهِ فَعَلَّمَ غَيْرَهُ فانتفَعَ بِه.

* * *

* كان عمر بن المُنكَدِر لا ينام الليل يُكثِرُ البكاء على نفسه، فَشُقَّ ذلك على أمه فقالت لأخيه محمد بن المنكدر: إنَّ الذي يصنع عمر يَشُقُّ عليَّ فلو كلمته في ذلك. فاستعان عليه بأبي حازم فقالا له: إن الذي تصنع يَشُقُّ على أُمِّكَ.

قال: فكيف أصنع..؟ إنَّ الليلَ إذا دخل عَلَيَّ هالني فَأَستَفتِحُ القرآنَ وما تنقضي نهمتي فيه.

قالا: فالبكاء؟

قال: آيَةٌ من كتاب اللّهِ تعالى أبكتني.

قالا: وما هي؟

قال: قول الله عز وجل:

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر/٤٧].

فهو يخشى أن يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب!.. هذا الذي أبكاه... فلنبكِ...

* * *

* بَعث سليمان بن عبد الملك إلى أبي حازم فجاءه، فقال: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟

قال: لأنكم عمرتم دنياكم وأخربتم أُخراكم، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب.

قال: صدقت، فكيف القدوم على الله عز وجل؟

قال: أما المحسن فكالغائِب يقدِمُ على أهلِهِ فَرِحاً مسروراً، وأما المسيء فكالآبق[1] يقدم على مولاه خائفاً مذعوراً.

فبكىٰ سليمان وقال: ليتَ شِعرِي مَا لَنا عند الله يا أَبا حازم؟

قال: اعرض نفسك على كتاب الله تعالى فَإنَّكَ تعلم مَا لَكَ عند الله.

قال: وأنىٰ أصيبُ ذلك؟

قال: عند قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾

[الانفطار/١٤].

---

(١) أي العبد العاصي لسيده، الهارب منه.

فقال سليمان: فأين رحمة الله؟

قال: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

[الأعراف/٥٦].

قال: يا أبا حازم ادعُ لنا بخير.

قال: اللهم إن كان سليمان وَلِيُّك فيسِّره للخير، وإن كان عدوك فخذ إلى الخير بناصيته.

* * *

* قال أحد العلماء: كان أشياخُنَا يحاسبون أنفسهم على ما يتكلمون به وما يفعلونه، ويقيِّدونه في دفتر، فإذا كان بعد العشاء حاسبوا نفوسَهم، وأحضروا دفترهم، ونظروا فيما صدر منهم من قول وعمل، وقابلوا كُلًّا بما يستحقه، إن استحق استغفاراً استغفروا، أو التوبة تابوا، أو شُكراً شكروا ثم ينامون، فزدنا عليهم في هذا الباب: الخواطِرَ، فكنا نُقَيِّدُ ما نُحَدِّثُ به نفوسَنا ونَهُمُّ به، ونحاسِبُها عليه.

* * *

* قال الإمام الحَسَن البصري رحمه الله: إنَّ المؤمِنَ قَوَّامٌ على نفسِهِ، يحاسِبُ نفسَه لله عز وجل، وَإنَّما خَفَّ الحسابُ يومَ القيامَةِ على قومٍ حاسبوا أنفسَهُم في الدنيا، وإنَّما شَقَّ الحسابُ يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة.

* * *

* اشترى رَجُلٌ غلاماً أسوداً بأربعةِ دنانير فكان لا ينام ولا يدعُ مولاه ينام، فإذا جَنَّ الليلُ قال سيدُهُ: يا غلام لِمَ لا تنام ولا تدعنا ننام؟

فقال الغلام: يا مولاي إذا جَنَّ ظلام الليل ذكرتُ ظُلمةَ القبرِ وظُلمةَ جهنم فيطيرُ نومي، فإذا ذكرتُ الوقوفَ بين يدي رَبِّي عَظُمَ غَمُّ قلبي، وإذا ذكرتُ الجنَّةَ ونَعِيمَها تَضاعَفَ شوقي إليها، فكيف لي بالنومِ يا مولاي؟!

فلمَّا سمع سيدُه منه ذلك خَرَّ مغشِيّاً عليه، فلما

أفـاقَ قـال: يـا غـلام مِثلي لا يَصلُحُ أن يَملِكَ مِثلَكَ، اذهب فأنت حُرٌّ لوجه الله.

* * *

* ورووا أن رجـلاً لـه ابن صغيـر يبيت معـه في الفراش، وفي ليلة من الليالي اضطرب الولـد ولم ينم، فقال له: يا وَلدي أَبِكَ وجعٌ؟

قال: لا يا أبـي، ولكنَّ غداً يوم الخميس اعرِضُ ما كسبتُ من العلم على مُعَلِّمي في الأسبوع، فـأخاف أن يَجِدَ الأستاذُ خطأً فيضرِبَني ويغضَبُ عَلَيَّ.

فصـاح الرجـل وأهال التـرابَ على رأسِهِ وبكى، وقال: أنا أحَقُّ بهذا الخوف ليـوم العرض على الـرحمن بما كسبتُ في الدنيا من العصيان كما قال تعالى:

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف/٤٢].

هكـذا كان المسلمـون، وبهذا كـانـوا يفكـرون، ولدار الآخرةِ يعملون...

الناس صنفان: موفَّق ومخذول

* عن محمـد بن سليمان القُـرشي قال: بينـا أنا أسيـر في طريق اليمن إذا أنـا بغـلامٍ واقفٌ في الـطريق في أذنيه قُرطان، في كل قرط جوهرة، يُضيء وجههُ من ضوءِ تلك الجوهرة، وهو يُمَجِّدُ رَبَّهُ بأبيات من الشِعـر، فسمعتُه يقول:

مَليـكٌ في السمـاءِ بِـهِ افتخـاري
عـزيـزُ القـدرِ ليس بِـهِ خَـفـاءُ

فدنوت منه. فسلَّمتُ عليه فقال: ما أنا برادٍّ عليـكَ حتى تؤديَ من حقي ما يجب لي عليكَ.

قلتُ: وما حَقُّكَ؟

قال: أنا غلامٌ على مذهب إبـراهيم الخليل عليـه

السلام لا أتغدىٰ ولا أتعشىٰ كل يوم حتى أسيرَ الميلَ والميلين في طلب الضيف.

فأجبته إلى ذلك، فرحَّب بي وسرتُ معه حتى قَرُبنا من خيمةِ شعر، فلما قربنا من الخيمةِ صاح: يا أختاه.

فأجابته جارية من الخيمة: يا لَبَّيْكاه.

فقال: قومي إلى ضيفنا.

فقالت الجارية: حتى أبدأ بشكرِ المولى الذي سبب لنا هذا الضيف، فقامت فصلَّت ركعتين شكراً لله تعالى.

فأدخلني الخيمة وأجلسني، وأخذ الغلام الشفرة وأخذ عَناقاً[1] ليذبحها، فلما جلستُ في الخمية نظرتُ إلى أحسن الناسِ وجهاً، فكنتُ أسارقُها النظر ففطنت

---

(١) الأنثى من أولاد المعز.

لبعض لحظاتي إليها، فقالت: مَهْ أما علمتَ أنه نقل إلينا عن صاحب يثرب ﷺ أنَّ زِنَى العينين النظر، أما إني ما أردتُ بهذا أن أوبِّخكَ، ولكني أردتُ أن أؤدبَكَ لكي لا تعودَ إلى مثل هذا.

فلما كانَ النومُ بتُّ أنا والغلام خارِجاً وباتَتِ الجاريةُ في الخيمةِ، وكنتُ اسمَعُ دَوِيَّ القرآنِ الليلَ كُلَّهُ بِأَحسنِ صوتٍ يكونُ وأَرَقِّهِ، فلما أصبحتُ قُلتُ للغلام: صوتُ من كان ذلك؟

فقال: تلك أختي تحيي الليلَ كُلَّهُ إلى الصباح.

فقلتُ: يا غلام أنت أَحَقُّ بهذا العمل من أختك، أنت رجلٌ وهي امرأة.

قال: فتبسم وقال لي: يا فتى أما علمت أنه موفقٌ ومخذولٌ[1]؟



---

(١) صفة الصفوة، لابن الجوزي.

بكاء الرشيد من خشية الله

عن الفضل بن الربيع قال: لما حجَّ أمير المؤمنين هارون الرشيد أراد أن يسترشد بعلماء الأمة، فقال: انظر لي رجلاً أسأله.

فذهبتُ به إلى سفيان بن عُيينة فحدَّثه ساعة ثم قضى الرشيد دينه وانصرف، ثم التفت إليّ وقال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً ــ وكأنه لم يجد دواء عنده لعلته ــ .

وقال لي: انظر لي رجلاً أسأله. فمضيتُ به إلى عبد الرزاق بن هَمَّام فحادثه ساعة، ثم قال له: عليك دين؟ قال: نعم.

قال: يا أبا عباس اقضِ دينه.

فلمَّا خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً، انظر لي رجلاً أسأله.

فـذهبت به إلى الفُضَيـل بن عِيَاض فـإذا هو قـائمٌ يصلي يتلو آية من القرآن يرددها.

فقال هارون: اقرع الباب.

فقرعتُ الباب فقال: من هذا؟

قلت: أجب أمير المؤمنين.

فقال: ما لي ولأمير المؤمنين؟

فقلت: سبحان الله، أمَا عليك طاعة؟

فنـزل ففتح البـاب ثم ارتقى إلى الغـرفـة فـأطفـأ المصبـاح ثم التجأ إلى زاويـة من زوايا البيت، فـدخلنا فجعلنـا نجول عليـه بـأيـدينـا فسبقت كفُّ هـارون قبلي إليه.

فقال: يا لها من كفٍّ، ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله عز وجل.

ثم أخـذ بالكـلام مع هـارون فقـال: إنَّ عمـر بن عبـد العزيـز لما ولي الخـلافة دعـا سـالم بن عبـد الله،

ومحمد بن كَعْب القُرظي، ورجاء بن حَيْوَة، فقال لهم: إني قد ابتليتُ بهذا البلاء فأشيروا عَلَيَّ.

فَعَدُّ الخِلاَفَةَ بلاءً، وعددتَها أنتَ وأصحابُك نعمة.

فقال له سالم بن عبد الله: إنْ أردتَ النجاةَ غداً من عذاب الله فَصُم عن الدنيا وليكن إفطارك من الموت.

وقال له محمد بن كعب القرظي: إن أردتَ النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً، فَوَقِّر أباكَ، وأكرِم أخاك، وَتَحَنَّنْ على ولدِك.

وقال له رجاء: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله عز وجل فأحبَ للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكرهُ لنفسك، ثم مُت إذا شئتَ.

وإني أقول لك إني أخاف عليكَ أشد الخوف في

يـوم تزلُّ فيـه الأقدام، فهـل معك رحمـك الله مَنْ يشيرُ عليكَ بمثل هذا؟!.

فبكى الرشيد بكاءً شديداً حتى غُشِيَ عليه.

فقلت له: ارفق بأمير المؤمنين.

فقـال: يـا ابن أم الـربيـع تقتله أنتَ وأصحابـكَ وأرفق به أنا..!

ثم أفاق فقال له: زدني رحمك الله؟

فقال: يا أميـر المؤمنين بلغني أنَّ عامـلاً لعمر بن عبد العزيز شكا إليـه، فكتب إليه عمـر: يا أخي أُذَكِّـرَكَ طول سهر أهل النار في النـار مع خلود الأبـد، وإياك أن يُنصَـرَفَ بِكَ من عنـد الله فيكـون آخـر العهـدِ وانقـطاع الرجاء.

قال: فلما قرأ الكتاب طوى البلادَ حتى قَدِم على عمر بن عبد العزيز. فقال له: ما أقدمكَ؟

قال: خلعتَ قلبـي بكتابكَ لا أعودُ إلى وِلايةٍ أبداً حتى ألقى الله عز وجل.

فبكى هـارون بكاءً شـديـداً، ثم قـال لـه: زدني رحمك الله؟

فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ العباسَ عم المصـطفى ﷺ جاء إلى النبـي ﷺ فقال: يـا رسول الله أَمِّـرني على إمارةٍ.

فقال له النبـي ﷺ: «إن الإمارةَ حَسرةٌ وندامةٌ يوم القيامة، فإن استطعتَ أن لا تكونَ أميراً فافعل».

فبكى هارون الرشيد بكاءً شـديداً وقـال له: زدني رحمك الله؟

فقـال: يا حسن الـوجـه أنت الـذي يسـألـك الله عز وجل عن هذا الخَلْق يوم القيـامةِ، فـإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبحَ وتمسِيَ وفي قلبـك غِشٌ لِأحد من رعيتـك فإنَّ النبـي ﷺ قـال: «من أصبحَ لهم غاشّاً لم يُرِح رائحة الجنة».

فبكى هارون وقال: هل عليك دين؟

قال: نعم، دينٌ لربـي يحاسبني عليه، فالويل لي

إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لَم أُلْهَم حُجَّتي...

قال: إنما أعني دين العباد.

قال: إنَّ رَبِّي لم يأمرني بهذا، أمر ربي أن اوحِّدَهُ واطيعَ امرهُ.

قال عز وجل:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات/٥٦].

فقال له: هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالِكَ وتَقَوَّ بها على عبادتِك.

فقال: سبحان الله أنا أدُلُّك على طريق النجاة وأنت تكافِئني بمثل هذا... سَلَّمَكَ الله.

***

خوف الله تعالى يدفع الإنسان إلى الإيثار والعفة والورع

* عن عبد الله ابن أخت مسلم بن سعد أنه قال: أردتُ الحج فدفع إليَّ خالي مسلم عَشَرةَ آلاف درهم وقال لي: إذا قدمتَ المدينةَ فانظر أفقر أهل بيتٍ بالمدينة فأَعطهم إيَّاهَا.

فلمَّا دخلتُ سألتُ عن أفقرِ أهل بيت بالمدينة، فَدُللتُ على أهل بيت، فطرقتُ البابَ، فأجابتني امرأة: من أنت؟

فقلتُ: أنا رجلٌ من أهلَ بغداد أودِعتُ عشرةَ آلاف درهم وأمِرتُ أن أسلمها إلى أفقر أهل بيت بالمدينة، وقد وَصَفَهُم لي فخذوها.

فقلت: يا عبد الله إن صاحِبَك اشترط أفقر أهل بيت، وهؤلاءِ الذين بإزائنا أفقر منا.

فتركتهم وأتيتُ إلى أُولئك، فطرقتُ الباب فأجابتني امرأة فقلتُ لها مثل الذي قلتُ لتلك المرأة.

فقالت: يا عبد الله نحن وجيرانُنا في الفقر سواء فاقسمها بيننا وبينهم.

وصدق اللّه:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

[الحشر/ ٩].

***

وفاة رسول الله ﷺ

* روى ابن مسعود قال: اجتمعنا في بيت أُمِّنا عائشة رضي الله عنها، فنظر إلينا رسول الله ﷺ فَدَمِعَتْ عيناه، فنعى إلينا نفسَهُ.

وقال: «مرحباً، حَيَّاكُمُ الله بالسلام، حفظكم الله، رعاكم الله، نصركم الله، وفقكم الله،، نفعكم الله، رفعكم الله، سلَّمكم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأوصي اللَّهَ بكم، وأستخلفه عليكم».

قلنا يا رسول الله: متى أجَلُكَ؟!

قال: «قد دنا الأجل، والمنقلبُ إلى الله، وإلى سدرة المنتهى وجنَّةِ المأوىٰ، والفردوس الأعلىٰ».

قلنا: يا رسول الله! ففيم نكفِّنُكَ؟

قال: «في ثيابي هذه إن شئتم، أو يمنيَّة[1]، أو بياض».

فقلنا يا رسول الله: من يصلي عليك؟.. وبكينا.

فقال: «مهلاً، رحمكم الله، وجزاكم عن نبيكم خيراً، إذا غسَّلتموني وكفنتموني، فضعوني في سريري هذا على شفير قبري، ثم اخرجوا عني ساعة، فإن أول من يصلِّي عَلَيَّ خليلي وحبيبي جبريل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم مَلَكُ الموت، ثم ملائكة كثيرة، ثم ادخلوا عَلَيَّ فوجاً، فصلوا عَلَيَّ وسلِّموا تسليماً، ولا تؤذوني بتزكيةٍ، ولا بِرَنَّةٍ، ولا بصيحةٍ، وليبدأ بالصلاة عَلَيَّ رجالُ أهلِ بيتي، ثم نساؤهم، ثم أنتم بعد، واقرؤوا السلام على من غاب عني من أصحابي، وعلى من تابعني على دِيني إلى يوم القيامة، ألَا وَإنِّي أُشهِدُكُمْ أَني قد سَلَّمتُ على كل من دخل في الإسلام».

***

---

(١) أي حلة من اليمن.

وفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

أما وفاة سيدنا عمر رضي الله عنه فيُروى أنه لما طُعن وحُمل إلي بيته، وجاء الناس يُثنون عليه، جاء رجل شاب فقال: أَبشِر يا أمير المؤمنين ببُشرىٰ من الله لك، صحبة رسول الله ﷺ، وقِدَمٌ في الإسلام ما قد علمت، ثم وُلِّيتَ فَعَدَلتَ، ثم شهادة.

فقال: وَدِدْتُ أنَّ ذلك كانَ كفافاً، لا لي ولا عَلَيَّ.

ثم قال: يا عبد الله بن عمر، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل: عمر يقرأ عليكِ السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يُدفن عند صاحبيه.

فمضى وسلَّم واستأذن عليها، ثم دخل فوجدها

قاعدة تبكي، فقال: عمر يقرأ عليكِ السلام، ويستأذِن أن يُدفن عند صاحبيه.

فقالت: كنت أريده لِنَفْسِي، ولأوثِرَنَّهُ اليومَ على نفسِي.

فلما أقبَلَ، قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء.

قال: ارفعوني.

فأسنده رجل إليه، فقال: ما وراءَك؟

قال: الذي تحبُّ يا أمير المؤمنين، أذِنَتْ.

قال: الحمد لله، ما كان شيءٌ أحبَّ إليَّ من ذلك، فإذا أنا مِتُّ فاحملوني، ثم سلِّم وقل: يَستأذِن عمر بن الخطاب، فإن أَذِنَتْ، فَأَدخلوني، وإن رَدَّتني، فردوني إلى مقابر المسلمين.



الدموع تمحو الذنوب

فإذا محت الدموع بحار النـار، فأحـرى أن تمحو من الكتـاب القبـائـحَ والأوزارَ، وإذا زالت من الكتـاب الفضائح والأوزار، رضي عنك الملك الغفَّار، وأمر بك إلى دار الراحة والقرار، وخلصتَ من عذاب البَوار.

فـآبكوا يـا جماعـة المسلمين على ما أذنبتم في الشهور والأعوام، وفي السـاعات والأيـام، من الخطايـا والإجـرام، واكتسـاب الـربـا والحـرام، وظلم الضعفـاء والأرامـل والأيتـام، ومـا فـرَّطتهم من حقـوق الملِك العلام.

فـالواجب على كـل مسلم علم من نفسه ذنبـاً أن يكثر البكاء عليه عساه يمحوه من كتاب مولاه، ويتفضل عليـه ويغفـر لـه مـا قـد جنـاه، فهـو المنَّان الكـريم، المتفضِّل العظيم.

فاللَّهم يا أكرم الأكرمين، ويا آخر الغافرين تفضَّل علينا بتوبة وعلى جميع المذنبين، تنقلنا بها من ذُلِّ المعصية إلى عزِّ الطاعة، وثبِّتنا عليها حتى تخرجنا من الدنيا بلا ذنب ولا تباعة، على منهج أهل السنَّة والجماعة، . . . اللَّهم آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

***

ذكر الموت جلاء للقلوب

يروى أن ذا القرنين مرَّ بقومٍ لا يملكـون شيئاً من أسبـاب الدنيـا، وقد حفـروا قبور مـوتـاهم على أبـواب دورهم، وهم كل يوم يقصـدون تلك القبور يكنســونها، وينظفونها، ويزورونهـا، ويعبدون الله ومـا لهـم طعام إلَّا الحشيش ونبات الأرض.

فبعث إليهم ذو القـرنين رجـلاً فـدعـا مَلِكَهم فلم يُجبه، وقال: مالي وله.

فجـاء ذو القـرنين وقـال: كيف حـالكم؟ فـإني لا أرى لكم شيئـاً من ذهبٍ ولا فضـة، ولا أرى عنـدكم شيئاً من نِعَم الدنيا.

قـال الملك: لِأَنَّ نعم الدنيـا لا يشبـع منهـا أحـد قط.

وقال: لَمَ حفرتم القبور على أبوابكم؟

فقال الملك: لتكون نصب أعيننا فننظر إليها ويتجدد لنا ذكر الموت، ويبرد حب الدنيا في قلوبنا فلا نشتغل بها عن عبادة ربنا.

فقال: ولم تأكلون الحشيش؟

فقال الملك: لأنّا كرهنا أن نجعل بطوننا قبوراً للحيوانات، ولأن لذة الطعام لا تتجاوز الحلق.

ثم مد يده إلى طاقة فأخرج منها قحف رأس ـ جمجمة ـ آدمي فوضعه بين يديه وقال: يا ذا القرنين أتعرف من كان صاحب هذا؟

قال: كان صاحبُ هذا القحف ملِكاً من ملوك الدنيا وكان يظلم رعيته ويجور عليهم وعلى الضعفاء ويستفرغ زمانه في جمع حطام الدنيا فقبض اللّهُ روحَه وجعلَ النارَ مقره، وهذا رأسه؟

ثم مد يده إلى الطاقة وأخرج قحفاً آخر فوضعه

بين يديه، وقال له: أتعرف من كان صاحب هذا؟

قال: كان هذا ملكاً عادلاً مشفقاً على رعيته محباً لأهـل مملكتـه، فقبض الله روحـه وأسكنـه جنتـه ورفـع درجَتَه.

ثم إنـه وضع يـده على رأس ذي القـرنين وقـال: تُرى أي هذين الرأسين يكون هذا الرأس؟

فبكى ذو القـرنين بكاءً شـديداً وضمـه إلى صدره وقـال لـه: إن رغبتَ في صحبتِي سلمتُ إليـك وزارتي وأُقاسِمُكَ مملكتي.

فقال: هيهات... مالي رغبه في ذلك.

قال: ولم؟

قـال: لأن النـاس جميعـاً أعـداؤك بسبب المـال والمملكة وكلهم أصدقائي بسبب القناعة والصعلكة[١].

***

---

(١) التبر المسبوك في نصيحـة الملوك، لأبـي حامـد الغزالي، ص ٥١. والصعلكة: الفقر.

﴿أينما تكونوا يُدرككم الموت. . .﴾
وجـرّه القدر. . إلى مكان مصرعه!!

حُكي أنَّ مَلَك الموت كان في زيارة سليمان عليه السـلام، وكان يـأتي الأنبياء في صـورة البشر لا يعـرفـه أحـد غيرهـم، وكـان عنده بعض أصحـابه، فـأخذ ملَك الموت ينظر إلى رجُل منهم ويتفرس في وجهـه، ثم آن لملَك المـوت أن ينصـرف، ولكـن بينمـا هـو يَـهمُّ بـالانصراف نَـظَر للرجل نـظرة ارتعـدت منهـا فـرائِصُـه وانخلع قلبه. . !!

فقـال لسليمـان عليـه السـلام بعـدمـا مضى: يا نبـي الله، ما بال هذا آلرجل ينظر إليَّ هكذا؟.

قال: ألا تعرف هذا؟ إنه ملَك الموت. . !!

قال الرجل متوسلاً إليه: يـا نبـي الله. . مُرِ الـريح العاصف تحملني في أسرع وقت إلى أقصى بـلاد الهند

فإنني أرى الشر في عينيه. . !

قال له سليمان: وهل تهرب من قدرك إذا جاء أجلك!؟.

قال الرجل: لقد أمرنا الله أن نأخذ في الأسباب. . وإنك لتؤدي لي أعظم خدمة.

فأمر سليمان الريح العاصف أن تنقله إلى المكان الذي يريده. .

ثم بعد فترة جاء ملَك الموت، فسأله سليمان عليه السلام: ما بال الرجل الذي كان عندي. . كيف تنظر إليه هكذا؟

قال ملَك الموت: إنني نظرت إليه نظرة دهشة. . إنه عندي في صحائف الموتى. . إن هذا الرجل سيموت في بلدة كذا في الهند، وتعجبت فكيف أذهب إلى الهند وهو عندك، وفي المكان المحدد وفي الموعد المحدد لقبض روحه، رأيته ينزل عليّ، فقبضتُ روحه. . !!

هذه رسلي يا يعقوب إلى بني آدم! . .

يُحكى أنَّ ملَك المـوت كـان مؤاخيـاً ليعقـوب عليهما السلام . .

فقال له سيدنا يعقوب ذات يوم : أريد منك مـطلباً أرجو أن تحققه لي بحقّ ما بيننا من أُخوّة وصداقة . .

قال : وما هو؟

قال : أن تخبرني إذا دنا أجلي . .

فقال له ملَك الموت : لك مني هـذا ، ولن أرسل إليـك رسـولاً واحـداً ، وإنمـا سـأُرسـل إليـك رسـولين أو ثلاثة . .

وبعد أن اتفقا على هذا ، انصرف ملَك المـوت ، ثم عاد بعد مدة من الزمان . .

فقال له سيدنا يعقوب: أزائِراً جئتَ أم قابضاً؟

فقال: بل قابضاً.

فتعجَّب سيدنا يعقوب عليه السلام، فقال له مُذكِّراً ومُعاتِباً: وأين الرسل الثلاثة..؟

قال: قد فعلتُ..

ـ بياض شعرك بعد سواده..

ـ وضعف بدنك بعد قوّته..

ـ وانحناء جسمك بعد استقامته..

هذه رُسلي يا يعقوب إلى بني آدم.



توجيهات غالية ومواعظ رشيدة

* قال عليٌّ رضي الله عنه: (لا تخف إلاَّ ذَنْبَك، ولا تَـرْجُ إلاَّ رَبَّك، ولا يستحي الـذي لا يعلم أن يَسـأل حتَّى يَعلم، ولا يستحي مـن يُسـأَلُ عَـمَّـا لا يَعـلم أن يقول: لا أعلم)[1].

* * *

* قال سيدنا عمر رضي الله عنه: (ما أبالي على اي حال أصبحت، أَعَلى ما أُحبّ أم على ما أكره؟ ذلك لأني لا أدري الخير فيما أُحبّ أو فيما أكره)[2].

* * *

(١) رسالة المسترشدين، للحارث المحاسبي، ص ٤٩.

(٢) رسالة المسترشدين، للحارث المحاسبي، ص ٥٢.

* قال سيدنـا عليّ رضي الله عنه: (يـا ابن آدم، لا تفـرح بالغِنى، ولا تَقنَط بـالفقر، ولا تحـزن بالبـلاء، ولا تفرح بالرخاء؛ فإنَّ الذهب يُجَرَّبُ بالنـار، وإنَّ العبد الصالح يُجَرَّبُ بالبلاء، وإنك لا تنـال ما تـريد إلَّا بتـركِ ما تشتهي، ولن تَبْلُغَ ما تُـؤَمِّلُ إلَّا بالصبر على ما تكـره، وآبذل جُهدَكَ لرعاية ما افتُرِضَ عليكَ، وآرضَ بما أرادكَ الله به)[1].



(١) رسـالة المسترشـدين، للحـارث المحـاسبـي، ص ٥١ ـ ٥٣.

ذو القرنين يُعزّي أُمّــه

ذَكَ أبو الفرج ابن الجوزي بإسناده عن عبد الله بن زياد قال: حدَّثني بعض مَن قرأ في الكتب أنَّ ذا القرنين لمّا رجع من مشارق الأرض ومغاربهـا وبلغ أرض بابـل مـرض مرضـاً شديـداً، فلمّا أشفق أن يمـوت كَتب إلى أمه: يا أُمّـاه اصنعي طعامـاً واجمعي مَن قدرتِ عليـه، ولا يـأكـل طعـامَـكِ من أُصيب بمصيبـة، واعلمي هـل وجدتِ لشيء قراراً باقياً، وخيالاً دائماً، إني قـد علمتُ يقيناً أنَّ الذي أذهب إليه خير من مكاني.

قال: فلما وصـل كتابـه صنَعَتْ طعامـاً، وجمَعَتْ الناس، وقالت: لا يأكل هذا مَن أُصيب بمصيبة.

فلم يأكلوا، فعلمَتْ ما أراد، فقـالت: من يبلِّغكَ عني أنك وعظتني فاتَّعَظْتُ، وعَزَّيتني فتعزَّيْت، فعليـك السـلام حياً وميتاً[1].

---

(١) تسهيل المصائب، لمحمد المنبجي الحنبلي، ص ١١.

اجعل الموتَ بين عينيك. . ولا تغفل

إنَّ في هـذا الدار نملة تجمـع الحَبّ في الصيف فتأكله في الشتاء، فلما كان يوم: أخذت حبة في فمها، فجاء عصفور، فأخذهـا والحبّة، فـلا ما جمعت أكَلَتْ، ولا ما أَمَّلَتْ نالت. . .

وهكـذا حياة الإنسـان: يجمع، فيـأتيـه المـوت، فيأخذه وما جَمَع[1]:

يُـؤَمِّــلُ دنـيــا لــتـبــقـى لــه
فــوافـى الـمـنيَّــة قـبــل الأَمــل

حثيـثــاً يُــرَوِّي أصــول الفـيــلِ
فعــاش الفيــلُ ومــاتَ الــرجــل



(١) الرقائق، للأستاذ محمد أحمد الراشد، ص ١٣٣.

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

● ● ●